

طه حسين و حديث الزهور



الزهر لا يحسن النجوى إلا حين يهدأ من حوله كل شيء
و حين يخلو إليك وتخلو إليه
و حين يفرغ لك وتفرغ له.
تحدثت (الزهور) إلى قلوبنا وأذواقنا وعواطفنا..
فزيّنت الود الخالص الذي لا يصدر عن طمع ولا عن خوف..
والذي لا يشوبه رهب أو رعب..
والذي لا تفسده مخادعة أو مصانعة..
والذي لا يعرف عن آمال تريد أن تُحقّق وتخشى أن تُخيب..
والذي لا يصرّ يأساً من غيرك ورجاءً فيك..
والذي لا يبتغي عندك نفعاً ولا يتقي منك ضرراً..
والذي لا يكدره ما يكدر صلوات الناس من هذا الشر المنكر
الذي تخفيه الضمائر وتكتمه القلوب..
وإنما هو الود الصفو والعفو الذي يصدر من النفس إلى النفس
ويصل القلب بالقلب، ويبلّغ الضمير رسالة الضمير.
وتحدّثت عن هذا الإخاء الذي لا يأتي من قرابة النسب
ولا من اشتراك المصالح ولا من تضامن الناس وتعاونهم
ليكيد بعضهم لبعض ويمكر بعضهم ببعض..
وإنما يأتي من الأدب حين يتصل بين الناس شعور بالجمال
وظموح رفيع إلى الحق الرفيع.
وتحدّثت عن هذه الصلات الحلوة التي تنشأ بين الناس
بريئة إلا من حب المعرفة..
نقيّة إلا من الترفع عن الصغائر
والتنزه عما يشين الرجل الكريم.
وكانت أحاديثها رقيقة رشيقة
لا تؤذي السمع ولا تشق على النفس
ولا تشغل عما يعرض للناس وما يعرض الناس له
من المنافع والمآرب والحاجات
وإنما تسعى عبيراً أرجأ دقيقتاً

فتبلغ أعماق الضمير في غير جهد ولا تكلف
أو تتمثل جمالاً رائعاً بارعاً في نضرة الندى
ورقة النسيم وابتسامة الشمس المشرقة
وهدوء الليل المطمئن وخصب الأرض الغنية
وغناء الطير الفرح المرح..
فتملاً العيون بهجة وتفعم النفوس غبطة
وتشيع في القلوب رضاً وأمناً واطمئناناً
وتقر في العقول أن الحياة
ليست كلها غدراً ومكراً
وكذباً وميناً وخداعاً ونفاقاً
ومدراً ورنقاً..
وإنما هي شيء أرقى وأنقى
وأجمل وأكمل من هذا كله..
وهي خليفة أن تحياها
ما دامت الطبيعة تستطيع أن تهدي إلى الناس زهراً نضراً
يحمل ابتسامة الشمس
ورقة النسيم
وعذوبة الندى
وهدوء الليل وخصب الأرض..
وربما تحدثت إلى النفوس ألواناً من الحديث
لا تستطيع لغات الناس أن تصورها
لأنها غامضة.. أغمض من أن تسعها الألفاظ
ولأنها واضحة.. أوضح من أن تنكرها النفوس
ولأنها تصور من نجوى الشجر والزهر
حين تشملها ظلمة الليل أو يغمرها ضوء النهار
وما يكون من مرح الغصون حيث يداعبها النسيم
ومن جزعها وفزعها حيث تعصف بها الرياح
وتصور مرح الطير حين يسفر الصبح
واكتئابها حين يدنو الأصيل..
وتصور ما يكون بين أمواج النهار والجدال
من مداعبة وملاعبة ومعاتبة ومغاضبة..
تصور ما تحمل الشمس المشرقة إلى الأرض
من تحية وما تضرم الشمس المحرقة على الأرض من موجدة
وتصور هذه الرسائل الجليلة الخفية

التي تحملها أشعة الكواكب والنجوم بين الكواكب والنجوم.

تصور هذا كله وأكثر من هذا كله

وتحملة إلى النفس في أناة مستأنية ورفق رفیق

لا تشق عليك ولا على أنفسها بذلك وإنما تسعى أحاديثها

من قبلها إليك عفواً في غير مشقة ولا جهد وفي غير

تكلف ولا تصنع. وأنت تسمع لها إن شئت وتعرض عنها

إن أحببت.. وأنت تعقل من أحاديثها ما تتفتح له نفسك

وينشرح له صدرك، ثم لا تشقى بما لم تسمع منها أو

تفهم عنها من الحديث، لأنها لا تدعوك إلى أن تسمع لها

ولا تلح عليك في أن تفهم عنها، وإنما هي قائمة باسمه،

تؤدي رسالتها وتلقى أحاديثها لمن كان له قلب...

فهي تحمل إلى الإنسان رسالة الإنسان، وهي تحمل إلى

الإنسان رسالة الطبيعة.. وهي لا تشق على الإنسان

حيث تبلغه هذه الرسالة أو تلك، وهي تنتظر ناعمة

مشيعة النعمة من حولها، حتى إذا سعى إليها الذبول

ومشى فيها الذواء استقبلت الفناء راضية كما استقبلت

الحياة راضية، وودعتك بأخر ما ترسل من أرجها وآخر

ما تنشر من جمالها، فتركت في نفسك أثراً... فيه كثير

من حب وكثير من رفق وكثير من حنان.. وفيه شيء من

اكتئاب وشحوب.

عن كتاب (رحلة الربيع)